الفصل 12
حرب من أجل السلام

«إنَّ أولئك الذين يدَّعون أنَّهم انصار الحرية، ثم يستخفون بأعمال التحريض ضد الجماعات الإثنية، هم أشخاص يريدون جني المحصول من دون حرث الأرض، ويريدون المطر من دون الرعد والبرق، ويريدون المحيط من دون تلاطم الأمواج. قد يكون الصراع أخلاقيًّا، وقد يكون صراعًا ماديًّا، أو كليهما معًا، ولكنَّه يجب أن يكون صراعًا؛ فالسُّلْطة لا تمنح شيئًا من دون مطالبة، لم يسبق لها أن فعلت ذلك، ولن تفعله أبدًا».

فريدريك دوغلاس، كاتب أمريكي، وداعية تحرير العبيد.

لقد شعرت بالغضب، لكنَّني لم أكن وحيدةً؛ فقد استيقظ الشعب الأمريكي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتجمَّعت القوى الديمقراطية لخوض معركة لحماية السلام في الشرق الأوسط.

في أول دعوة إلى الحرب تنطلق من الكونغرس التقى الأمريكيون من مختلف الأعمار والانتماءات السياسية والعرقية والاجتماعية والاقتصادية في جبهة معارضة.

أصبحت تشاهد أفرادًا لم يشاركوا قط في مظاهرات، وهم يرفعون أصواتهم عاليًا ضد الحرب على العراق، وقد استعمل قادة الحركة المعارضة للحرب (تقدَّموا، والرد العالمي،

ومتحدون من أجل السلام والعدالة) شبكة الإنترنت لحشد المعارضة الشعبية على نطاق واسع، ونظموا حملة توقيعات، وهجمات بمكالمات هاتفية تُطالِب البيت الأبيض والكونغرس التحرك لوقف إعلان قانون الحرب، وكانت الاحتجاجات أمام مبنى الكونغرس قد استمرت أيامًا عديدةً، وأُرسلت آلاف الرسائل كل أسبوع، ويرجع الفضل في ذلك كله إلى شبكة الإنترنت؛ ما جعل قوة الحركة المناهضة للحرب تنافس الزخم الذي تحقق في نهاية حرب فيتنام.

وهكذا، وُلد مخطط مناهضة الحرب بوساطة الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).

فلو كان قادة الولايات المتحدة يهتمون بالديمقراطية حقًّا لكانت تلك فرصتهم السانحة لكي يعربوا عن اعتزازهم بشعبهم ووطنهم، لكنَّ ما حدث هو أنَّ الكونغرس اتخذ في اليوم العاشر والحادي عشر من شهر أكتوبر عام 2002م قرارًا مشتركًا يجيز الحرب على العراق بأغلبية (77) صوتًا مقابل (23) صوتًا في مجلس الشيوخ، و (296) صوتًا مقابل (133) صوتًا في مجلس النواب [215].

وقد وصف السيناتور روبرت بيرد مَن صوتوا لمنع قرار الحرب بِـ(الثلاثة والعشرين الخالدين) [216].

وفي الحقيقة، فإنَّ قلّةً من هؤلاء هي التي عارضت الحرب بقوة، وحاولت وقف الكارثة قبل وقوعها.

لقد كانت منصة السلام خاليةً، لكنَّ القيادة العنيفة المتحدة تمثلت في شخص السيناتور بيرد والسيناتور إدوارد كينيدي، اللذين حاولا أن يضفيا جوًّا من العقلانية على النقاش، كان السيناتور بيرد يتحدث أمام المجلس يوميًّا قبل عملية التصويت، ولم يتوقف عن المقاومة بعدها، وظل يطالب بالسلام إلى أن وقع الغزو، وطالب بفك الاشتباك بعد ذلك، أما السيناتور كينيدي فطالب قادة أمريكا التفكير في العواقب الأخلاقية التي ستلحق بقيادة أمريكا الأخلاقية للمجتمع الدولي، قائلًا:

«يمكننا التعامل مع العراق من دون اللجوء إلى هذا العمل المتطرف، ولا يمكن للقانون الدولي تبرير المعايير المزدوجة، ولا يمكن لأمريكا أن تفرض قوانينها الخاصة على العالم المتحضر، وإذا فعلت ذلك فهذا يعني أحادية منفلتة، وسيثير ذلك عداوة أقرب حلفائنا الذين نحتاج إلى

دعمهم لمكافحة الإرهاب، يتعيَّن علينا منع الاحترار العالمي، ومواجهة الأخطار الأخرى التي تُهدد الدول جميعًا. إنَّ هذا العمل سيُفقِد أمريكا الشرعية الأخلاقية اللازمة لنشر قيمنا في الخارج، وسيعطي دولًا أخرى، مثل روسيا والهند وباكستان، المُبرر لانتهاك المبادئ الأساسية للسلوك الدولي المتحضر» [217].

ولكنَّنا نادرًا ما سمعنا كلمات تصدح بهذه الحكمة والحِلم من قادة الكونغرس.

لم يُنتخب باراك أوباما (السياسي الديمقراطي الصاعد) عضوًا في مجلس الشيوخ إلا في شهر نوفمبر من عام 2004م بعد بداية الحرب، وقد أثبت أنَّه يتمتع ببُعْد نظر وشجاعة أكثر من معظم زملائه في الحزب الديمقراطي [218]، وكان أوباما قد أعلن فلسفته المعارضة للحرب في شهر أكتوبر عام 2002م، قبل يوم من تصويت الكونغرس، حيث قال:

«ليست لديَّ أوهام فيما يتعلق بصدام حسين، وسيكون حال الشعب العراقي أفضل في غيابه، لكنَّني أعرف أيضًا أنَّه لا يُمثِّل خطرًا مباشرًا ووشيكًا على الولايات المتحدة، أو على جيرانه، خاصةً أنَّ اقتصاده يعاني الفوضى والاضطراب، ولم يعد جيشه قويًّا كما في الماضي، ويمكن احتواء هذا الجيش بالتحالف والتعاون مع المجتمع الدولي إلى أن يسقط مثل بقية الحكام الطغاة في مزبلة التاريخ».

وأضاف: «أعرف أنَّ أي حرب ناجحة على العراق تتطلب احتلالًا مدَّةً غيرَ معروفة، وتكاليفَ غيرَ معروفة، ونتائجَ غيرَ معروفة، وأعتقد أنَّ أي غزو للعراق من دون أي مُبرر واضح، ومن دون دعم عالمي قوي، سوف يؤدي فقط إلى إذكاء نار الصراعات في الشرق الأوسط، ويثير أسوأ المشاعر في العالم العربي، ويُعزِّز قدرة تنظيم القاعدة على تجنيد مزيد من المؤيدين.

أنا لا أعارض الحروب كلها، لكنَّني أعارض الحروب الغبية، هل تريد هذه الحرب أيها الرئيس بوش؟ حسنًا، دعنا نُنْهِ هذه الحرب على ابن لادن والقاعدة بجمع معلومات استخباراتية فاعلة منسَّقة، وإغلاق شبكات التمويل الداعمة للإرهاب، وإعداد برنامج أمن قومي يشمل أكثر من مجرد إصدار تحذيرات سرية».

بصراحة، لا يمكنني أن أقول أفضل من هذا.

ومما يُؤسَف له أنَّ أوباما وبيرد وكينيدي كانوا أقليةً في الكونغرس، وبالرغم من مطالبة الشعب الأمريكي قيادته عدم غزو العراق، فإنَّ أقل من ثلث أعضاء مجلس الشيوخ فقط عارضوا قانون الحرب.

وفي الأيام التي سبقت التصويت على هذا القانون شعرت بالذهول والصدمة من الدعاية الإعلامية في مبنى الكونغرس؛ إذ لم يكن للخطابات علاقة بالواقع الذي أعيشه بوصفي مصدرًا رئيسًا للمعلومات في الأمم المتحدة، وتحول مبنى الكونغرس إلى مسرح سياسي، تحدث فيه الأعضاء عن العراق بلغة تخلو من أي فهم للتطورات الكبيرة التي حدثت في العامين الماضيين.

في ذلك الوقت كنت قد زرت عددًا كبيرًا من مكاتب الأعضاء [219]، وواصلت لقاءاتي بالأعضاء الديمقراطيين والجمهوريين لشرح مشروع السلام إلى ما قبل الغزو.

وقد أبلغني الكثير منهم بما تلقوه فعلًا من معلومات عن مشروع السلام هذا؛ لذا فإنَّ حملة التضليل هذه كلها لم تكن نتيجةً لخطأ ما، لقد خطر ببالي أنَّ الكونغرس حاول -عن قصد- إخفاء حقيقة وجود فرص للتوصل إلى حل سلمي مع العراق؛ ليتمكن من بيع كذبة للشعب الأمريكي تُبرر الخيار العسكري، لقد أراد الكونغرس إقناع الشعب أنَّ الحرب هي المخرج الوحيد، وكانت هذه كذبةً كبيرةً.

حدثت بعض التحولات في معسكر السلام بعد التصويت على قانون الحرب؛ فقد ظهر السيناتور جوزيف بايدين وريتشارد لوغار وشوك هاغل بوصفهم من أكثر المدافعين عن استخدام الدبلوماسية، وبناء التحالفات إلى أقصى حدٍّ ممكن، قبل اللجوء إلى المواجهة العسكرية، وقد أسهم هؤلاء بفاعلية في النقاشات، مؤكدين أنَّ الحوار أفضى إلى عودة مفتشي الأسلحة إلى العراق، وحثوا البيت الأبيض على إعطاء المفتشين فرصة للنجاح في مهمتهم، وتجدر الإشارة إلى أنَّ هؤلاء الثلاثة كانوا أعضاءً في لجنة الشؤون الخارجية التي تلت إيجازًا خاصًّا عن نجاح حوار القناة السرية [220]، وقد أعطاني هذا أملًا بأنَّ خيار السلام قد يجذب المزيد من القادة.

أما بالنسبة إلى مجلس النواب فقد قاد النائبان رون كيند وشيرود براون تحالفًا ضم (123) عضوًا من أعضاء الكونغرس؛ لحث البيت الأبيض على إعطاء مفتشي الأسلحة الوقت

الكافي لإتمام مهمتهم، وقد وقع ربع أعضاء الكونغرس رسالة مُوجَّهة إلى الرئيس بوش، تساند عملية الأمم المتحدة في التحقُّق من نزع السلاح العراقي، وكان هؤلاء جميعًا من الحزب الديمقراطي [221].

ولكن ولسوء الطالع، فقد واصلت الإشاعات انتشارها بصورة أسرع مقارنةً بالحقائق الصادقة؛ فبالرغم من أنَّ المعرفة البسيطة بالشرق الأوسط كانت كفيلةً بإخافة الكونغرس وتحذيره من مغبة الهجوم العسكري على العراق، فإنَّه فشل في إدراك حجم العواقب، متجاهلًا التقارير الاستخباراتية، ومناشدات الخبراء السياسيين والعسكريين.

لقد كانت كلمات مثل: (مستنقع، طريق مسدود، فخ رملي) لغةً غريبةً بالنسبة إلى أعضاء الكونغرس الذين كانوا مشغولين بمسرحيات الدعاية الحربية، والذين أعمتهم حاجاتهم إلى لفت انتباه الجمهور والظهور على شاشات التلفزة عن رؤية الحقائق، ولم يكونوا مستعدين لسماع أي انتقادات أو تشكيك.

وإذا كان أعضاء الكونغرس يعتقدون أنَّه يمكنهم التغلب على الشعب الأمريكي، فإنَّ هذا خطأ فادح؛ لأنَّ الشعب رفع صوته معارضًا.

في السادس والعشرين من شهر أكتوبر عام 2002م (بعد أسبوعين من إقرار الكونغرس قانون الحرب)، خرج الشعب الأمريكي في مظاهرات حاشدة بواشنطن وسان فرانسيسكو، وكانت الحافلات تأتي محملة بالمتظاهرين من الولايات الأمريكية المختلفة، أما على الصعيد العالمي فقد تجمَّع في اليوم نفسه مئات الآلاف من المتظاهرين في روما وبرلين وكوبنهاجن وطوكيو ومكسيكو سيتي للاحتجاج على غزو العراق [222].

لقد كانت المعارضة العالمية للحرب على العراق أقوى مظهر من مظاهر الديمقراطية التي شهدها العالم؛ ففي واشنطن شارك نحو (200) ألف أمريكي في تجمُّع استمر ثلاثة أيام، ثم طوَّق المتظاهرون البيت الأبيض، وزاد عددهم على عدد المشاركين في أكبر مظاهرات السلام في نهاية حرب فيتنام، وقد طاف المتظاهرون العاصمة وهم يهتفون بشعارات مناهضة للحرب، ولما وصلت مقدمة المظاهرة إلى المكان الذي انطلقت منه، كان المتظاهرون لا يزالون يتدفقون إلى الساحات [223].

لقد أظهر كل ناشط شارك في حركة مناهضة الحرب بُعدَ نظرٍ وموقفًا شجاعًا، ويحق لكل واحد منهم أن يفخر بأنَّه ناضل بقوة من أجل الحفاظ على السلام.

أظهرت الديمقراطية أيضًا القوة المُزلزِلة في مختلف المحافل الاقتصادية والحدود الإقليمية، وقد أدرك الشعب الأمريكي، من دون أن تكون لديه أي معلومات استخباراتية، حجم المأساة التي ستسببها الحرب، فتضامن بقوة للتعبير عن معارضته؛ على أمل أن يحترم المسؤولون الحكوميون المنادون بالديمقراطية في الخارج، تلك المبادئ الديمقراطية داخل الولايات المتحدة. هذه مفارقة كبيرة، أليس كذلك؟ فلو احترم قادتنا إرادة الشعب لانتصرت حركة مناهضة الحرب، مُحقِّقةً الكثير لتعزيز الديمقراطية في مناطق مختلفة من العالم، بصورة أكثر من الخطابات والشعارات كلها التي نادى بها البيت الأبيض ووزارة الخارجية، لو أنَّهم فعلوا ذلك لكنا كسبنا عقول الناس وقلوبهم في الشرق الأوسط وآسيا وغيرهما، لكنَّنا أضعنا هذه الفرصة بالحرب على العراق، وأعتقد أنَّنا أضعناها إلى الأبد.

ونظرًا إلى عملي وسيط استخبارات سرية؛ فلم يكن صعبًا تقرير ما يتعيَّن عليَّ القيام به، لقد أيقنت أنَّني لا أستطيع أن أظل متفرجةً، في الوقت الذي يسوق فيه الكونغرس العالم إلى الحرب.

طوال فصلي الخريف والشتاء انضممت إلى حركة مناهضة الحرب المتصاعدة، فكنت أشارك في المظاهرات الحاشدة في واشنطن، وفي تجمُّعات الاحتجاج الصغيرة.

كنت أشعر بغضب شديد يومًا بعد يوم، في كل مرَّة أشاهد فيها مسؤولي البيت الأبيض أو قادة الكونغرس وهم يُلوِّثون الهواء بتصريحاتهم - على شاشات التلفاز- عن علاقة العراق بالإرهاب، أو معارضته عمليات التفتيش عن الأسلحة، كان هؤلاء الخطباء يجهلون الحقائق الخاصة بالشرق الأوسط، بالرغم من وصفهم بالخبراء.

لقد صدمتني الطريقة المتهوِّرة التي عمد فيها أساطين مراكز البحوث وأجهزة الإعلام إلى انتقاد جهود السلام، لقد أعددنا مشروع السلام على نحوٍ يحفظ المصالح الأمريكية، لكنَّهم بدلًا من انتقاد دعاية البيت الأبيض، أخذوا يغذون حملة الهستيريا، فكانوا يسوِّقون الحرب، مثل تسويق أي موضة أزياء جديدة.

ونظـرًا إلـى غضبـي الشـديد مـن حملة الخـداع والزيـف التـي ترأسـها الكونغرس والبيت الأبيض؛ فقد اتخذت قراري بانتهاك القانون الأساسي لجمع المعلومات الاستخباراتية.

لم أكـن لأقبـل إخفـاء الحقيقـة إرضـاءً للكونغرس، ولم أكـن لأعفـي القـادة المنتخبين من مسؤوليتهم تجاه الشعب فيما يتعلق باتخاذ القرار، كان هذا القرار هو سبب خسارتي كل شيء أملكه، لكنَّني لم أندم قط على أي عمل قمت به بعد ذلك.

لقـد تعلمت، بوصفي وسـيطًا سـريًّا، كيف أحل المشـكلات، وأجد الأدوات التـي أحتاج إليها وحدي سريعًا من لا شيء، وإلا لما أصبحت قادرةً على أداء كل عمل بمهارة وإتقان.

لقد أظهر موقف الكونغرس وجود فشـل ذريع في التواصل، وخطر لي أنَّ الحل بسـيط جدًّا؛ وهـو يتمثـل في الاتصـال بالقيـادات العليا، وتنظيم نقاش مـع كلٍّ منها، وهذا يعنـي زيادة عدد الجمهور وحجم المعرفة إلى الحد الأقصى، والتقليل من عملية (الإنكار)، بحيث لا يقولون أن لا علم لهم بالحقائق، وأن لا أحد قد بيَّن لهم أخطاء افتراضاتهم، وفي حال أُجبروا على مواجهة الحقيقة عند كل منعطف، فمن المحتمل جدًّا أنَّهم سيعترفون بها.

قلت لنفسي إنَّها إستراتيجية ممتازة؛ لذلك، أطلقت في الحادي عشر من شهر سبتمبر عام 2002م (الذكـرى السـنوية الأُولـى للهجوم الإرهابـي الذي عملت جاهدة لوقفه) نظام رسـائل سـميته (مواطنـون مـن أجل النـزاهـة العامة)، ويحمل الاسـم إدانـةً وانتقادًا لاذعًا لاسـتغلال الهجوم الإرهابي سياسيًّا من أجل حشد التأييد الشعبي للحرب.

ولكي أتمكن من إيصال الرسالة؛ فقد أنشأت قاعدة بيانات إلكترونية تضم أسماء (435) عضوًا في مجلس النواب، و (100) عضو في مجلس الشيوخ، وكانت الرسائل تصل إلى الأعضاء الجمهوريـين والديمقراطيـين، من دون تفضيل حزب على آخر؛ لضمان وصول الرسـائل إليهم جميعًا [224].

اشـتملت القائمـة على البريد الإلكـتروني لكلٍّ من كبار الموظفين والخـبراء القانونيين، وكل سكرتير صحفي وخبير في السياسة الخارجية بمجلسي النواب والشيوخ [225].

باختصار، فقد شملت قاعدة البيانات كبار موظفي الكونغرس من الحزبين جميعًا، لقد كان مشروعًا ضخمًا، وكان عليَّ أن اتصل بكل مكتب للحصول على الأسماء، وتُثبِت تسجيلات مكالماتي الهاتفية من أصدقائي الطيبين في مكتب التحقيقات الفيدرالي أنَّني فعلت ذلك.

أنشأت أيضًا قاعدة بيانات تتضمَّن أرقام الفاكس الخاصة بأعضاء مجلسي الشيوخ والنواب، و (185) سفيرًا من السفراء المعتمدين لدى الأمم المتحدة [226].

بعد انشاء نظام (مواطنون من أجل النزاهة العامة)، استعملت بيانات الفاكس والبريد الإلكتروني لإطلاق حملة تهدف إلى كشف أخطار الحرب والاحتلال، وأعددت (20) دراسة مختصرة عن آثار الاحتلال المدمرة في الشعب العراقي، والشرق الأوسط، والمستقبل المالي للطبقة المتوسطة في الولايات المتحدة، وكنت قد وزَّعت أيضًا مقالات مهمة كتبها خبراء في السياسة الخارجية.

لقد صرخت بأعلى صوتي لإسكات هؤلاء الذين ادعوا أنَّ الوسطاء السريين لم يفعلوا شيئًا لوقف الهجوم الإرهابي، وقد أصبت الهدف إصابةً دقيقةً.

على سبيل المثال، أجريت بحثًا عن تاريخ مقاومة الشعب العراقي للاحتلال البريطاني في عشرينيات القرن الماضي، والخسائر الفادحة التي تكبَّدها الجيش البريطاني.

وحذَّرت من هزيمة شبيهة بهزيمة بريطانيا، ومن النتائج الشبيهة بنتائج الثورات على الحكام العملاء في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وما نجم عن ذلك من موجة عداء للغرب، واندلاع ثورة عام 1958م الموالية للمعسكر الشيوعي [227].

نشرنا أيضًا دراسة عن تكاليف الحرب والاحتلال مدَّة عشر سنوات، وقد قُدِّرت بنحو (1,6) تريليون دولار، مقارنةً بـ (100) بليون دولار قدَّرها الجمهوريون الداعمون للحرب [228]. والحقيقة أنَّ الحرب في أفغانستان والعراق كلفت الولايات المتحدة ما بين (4–5) تريليونات دولار؛ أي نحو ثلث مجموع الدَّيْن الفيدرالي البالغ (15) تريليون دولار.

وكنا قد حذَّرنا الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة من أنَّ تكلفة الحرب سوف تتسبب في عجز الحكومة عن توفير الخدمات؛ لأنَّ التكلفة الأولية لأخطار الحرب (100 بليون دولار)

ستؤدي إلى زيادة الضرائب المفروضة على الدخل الشخصي والأرباح الهزيلة للشركات، في الوقت الذي كان فيه الأمريكيون يواجهون احتمال عودة حالة الركود والكساد، وازدياد عدد الشركات التي تعلن إفلاسها [229].

لذلك، فقد حذَّرت من أنَّ الحرب على العراق ستدفع مؤسساتها المالية إلى حافة الانهيار، وقلت إنَّ معارضة إرادة الشعوب ستكون لها عواقب وخيمة؛ فمن غير المعقول أن يلجأ الكونغرس بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى هذه التصرفات الطائشة، التي من شأنها زيادة العمليات الإرهابية الانتقامية على بلدنا، ومن الواضح أنَّ أصحاب المناصب يعتقدون أنَّهم يستطيعون إلهاء الشعب الأمريكي عن التفكير في أوضاع سوق الأسهم، وأخطار الوقوع في موجة كساد مزدوج بالحديث عن العراق [230].

أردت أيضًا تحذير الكونغرس من أنَّنا سنلاحق الأعضاء الذين تثير تصرفاتهم ردات فعل إرهابية، مثلما لاحقنا تنظيم القاعدة، لكنَّ الفارق هنا هو أنَّ هؤلاء الأعضاء لن يستطيعوا الاختباء مثل أسامة بن لادن.

وهكذا، فأنا لم أقف متفرجة، بل يمكنني القول إنَّ أفعالي كانت تعبيرًا صادقًا عما هو مطلوب من الوسيط السري، الذي يسارع عند ظهور أزمة ما إلى إيجاد وسيلة لحل المشكلة، وهذا ينفي الاتهامات التي تزعم أنَّ الوسطاء السريين أظهروا (عدم كفاية وقدرة) على حل المشكلات التي أدَّت إلى الحرب.

وأنا أشكر مكتب التحقيقات الفيدرالي الذي سجل لي (28000) ألف مكالمة هاتفية، واعترض (8000) آلاف رسالة إلكترونية، ورسائل أخرى بالفاكس، حذَّرت فيها الكونغرس من عواقب الحرب [231].

صحيح أنَّ موقفي المعارض للحرب ربما كان يُعبِّر عن وجه نظر أقلية داخل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. ومع ذلك، فإنَّ أفعالي تُثبِت أنَّ المعارضين رفعوا أصواتهم لمنع الكونغرس من الوقوع في هذه الكارثة. ربما كان عددنا قليلًا، ولكنَّنا كنا منظمين جيدًا، ومبدعين في إيصال رسالتنا إلى الآخرين، ولم نكن مجرد قطيع من الأغنام ننظر إلى الكارثة غير مبالين، ولكنَّنا رأينا الأخطاء في الافتراضات السياسية، وحاولنا جاهدين توفير معلومات دقيقة

لصناع القرار، لكنَّ قادتنا رفضوا الاستماع إلينا، ولم يتصرفوا بوصفهم ممثلين للشعب، يتلقون التعليمات من الناخبين.

لقد واجهت مضايقات كثيرة من المعسكر المؤيد للحرب؛ فمثلًا: اعتمدت على خطوط الإنترنت والفاكس لأبعث رسائلي إلى أعضاء الكونغرس والسفراء المعتمدين في الأمم المتحدة، وكان جهاز الفاكس يعمل من دون توقف أسابيع عدَّة، ولكنَّ خطوط هاتفي كانت تتوقف فجأةً، فكنت أضطر إلى الذهاب إلى مكتب للخدمات الهاتفية في البرد القارس، كانوا يقولون لي إنَّ مشكلةً فنيةً ما سببت عطلًا في خطوط الهاتف؛ ما يستدعي ذهاب أحد فنيي المكتب لإصلاحها، لم يحدث ذلك من قبلُ، ولا يوجد أي تفسير لسبب حدوثها الآن، باستثناء نشاطي المعارض للحرب. كان الفني يأتي إلى بيتي، ويحل المشكلة، لكنَّ خط الهاتف كان يتوقف مرَّةً أخرى بعد عشرة أيام، وقد حدث ذلك كثيرًا.

إلا أنَّ هذا كله لم يوقفني، صحيح أنَّ المعارضين والمؤيدين للحرب كانوا يتقاتلون فيما بينهم، لكنَّ هذا جزء من لعبة الاستخبارات، وكنا نفهم هذه اللعبة جيدًا، ولا نسمح لها بإحباطنا.

يتعيَّن على أي وسيط سري جيد أن يعرف كيف يكسر الجمود، وهذا هو دورنا، وقد نجحت حتى الآن في مفاوضات لوكيربي مع ليبيا، والمفاوضات الأولية مع السفير العراقي وكبار الدبلوماسيين في السفارة العراقية لدى الأمم المتحدة من أجل استئناف عمليات التفتيش عن الأسلحة، وكانت هذه المهام أصعب من عمليات العبث السخيف بخطوط الهاتف.

لذلك، فأنا أعتقد أنَّ المحافظين الجُدد حاولوا عرقلة عمليات توزيع الرسائل، ووضع عراقيل في طريقي، لكنَّني كنت أتغلب عليها، وهذه هي لعبة الاستخبارات، وهكذا تجري الأمور.

وما أقوله هنا ليس شكوى، ولكنَّ من المهم أن يفهم الأمريكيون والمجتمع الدولي الأعمال التي قمت بها قبل الحرب؛ لأنَّ هذه الأعمال تُثبِت أنَّ الانتقادات المُوجَّهة إلى الاستخبارات ما هي إلا شعارات كاذبة تهدف إلى إلهاء الناخبين الغاضبين.

لقد حوَّلت الإدارة الأمريكية الاستخبارات إلى كبش فداء؛ لأنَّ قادة الكونغرس كانت تعوزهم النزاهة والشجاعة لتحمُّل مسؤولية قراراتهم، فَهُم في نهاية المطاف مَنْ ساعد على شن الحرب على العراق، وقد حاول عدد كبير منا ثنيهم عن ذلك.

ومـن ناحيـة أخرى، فقد أردت من هذه التفاصيل أن أنسـب الفضل إلى أهله؛ إلى الشـعوب التـي عارضـت الحرب، لقد تظاهر عشـرات الملايين من الناس في الشـوارع، ورفعوا أصواتهم مطالبـين قـادة أمـيركا بعـدم الإقدام على هـذا الفعـل الغبي الشـنيع، ودعت أغلبيـة الناخبين الديمقراطيين والجمهوريين إلى منح مفتشي الأسلحة فرصة لإكمال مهامهم.

ارتفـع عـدد المناهضين للحرب في أمريكا إلى ثلاثة أضعاف؛ فقد ذكرت صحيفة واشـنطن بوسـت أنَّ أكثر من نصف مليون إنسـان تحدوا البرد القارس يوم التاسـع عشر من شهر يناير عام 2003م، وتظاهروا في شوارع واشنطن للاحتجاج على الغزو الأمريكي للعراق [232].

تصاعد نشـاط حركة مناهضة الحرب في شهر فبراير، وبلغت المظاهرات ذروتها في عطلة نهايـة الأسـبوع (14-16 ينايـر)؛ إذ شـهدت (60) دولـةً و (700) مدينة في القـارات جميعها مظاهـرات احتجاج حاشـدة معارضة للحرب، وقالت أقل التقديـرات إنَّ أكثر من (12) مليون شـخص شـاركوا في هـذه المظاهـرات التـي عُدَّت أكبر مظاهرات منظمـة ومنسَّـقة في التاريخ البشري [233].

خرجـت أكبر الجموع البشـرية في إيطاليا وإسـبانيا اللتينِ سـاندت حكومتاهمـا اليمينيتان الغزو الأنجلوأمريكي بالرغم من اسـتطلاعات الرأي التي أظهرت معارضة ما نسـبته (70%) من شـعبي البلدينِ للحرب، شـارك في مظاهرات روما مليونا شـخص على الأقل، احتشـدوا في وسط العاصمة التاريخي، وهم يرفعون الأعلام، ويُردِّدون الهتافات [234].

وفي ألمانيـا تظاهـر نصـف مليـون شـخص مـن برلـين، وتظاهـر (100) ألـف شـخص في بروكسـيل، وكانـت هذه أكبر مظاهرة في تاريخ المدينـة التي يوجد فيها مقـر البرلمان الأوروبي وحلـف النيتـو [235]. تظاهـر أيضًـا نصـف مليـون شـخص في مدينة نيويـورك بالرغـم من قرار الحظر، ورفضوا إخلاء الشوارع [236].

وخرج (4) ملايين و (450) ألف متظاهر في المدن الإسبانية [237]، وقالت وسائل الإعلام إنَّ واحدًا من بين كل (8) إسبان تظاهروا في ذلك اليوم للاحتجاج على دعم حكومة خوسيه آزنار للحرب، وقد أسقطها الناخبون الغاضبون بعد عام من هذه المظاهرة.

لقد كانت مظاهرات نهاية الأسبوع تلك احتفاءً عالميًّا بالدبلوماسية وعدم اللجوء إلى العنف، لكنَّ المأساة أنَّ هذا كله لم يُقنع قادة أمريكا باحترام إرادة الشعب، واتخذوا قرار الحرب بأسمائنا كلنا، وضد رغباتنا كلنا، ولا تزال شعوب العالم تدفع حتى هذا اليوم ثمن الغلطة الفادحة التي حدثت يوم التاسع عشر من شهر مارس عام 2003م، وهو اليوم المعيب المخزي الذي سيظل محفورًا في الذاكرة إلى الأبد؛ ذلك اليوم الذي هَزمت فيه مجموعة من المتسلطين في واشنطن الديمقراطية العالمية.

لقد كنت مجرد صوت من بين ملايين الأصوات التي اتحدت مطالبةً بالسلام والعدالة. ولكن، مَن الذي كان يعتقد أنَّني الوحيدة التي ستمثل خطرًا على مسؤولي البيت الأبيض، الذين استماتوا في اختراع سلسلة من التبريرات الكاذبة لهذه الكارثة بعد انكشاف غلطتهم الفادحة؟

خلاصة القول هي أنَّ القادة الذين ورَّطوا عالمنا في الحرب على العراق لم يستطيعوا تحمُّل مسؤولية اتخاذ قرارهم؛ لقد كانوا جبناء.

وصادف أنَّ أحدهم كان ابن عمي آندرو كارد (كبير موظفي البيت الأبيض)؛ فعندما بدأت الحرب تواجه المشكلات- حدث هذا بعد إعلانها مباشرةً - أخذ آندرو وأصدقاؤه من المحافظين الجُدد يبحثون عن كبش فداء، فوقع اختيارهم على الوسطاء السريين - أنا تحديدًا- لتحميلهم وزر كل ما جرى.

آندرو كارد

راجت الكثير من الإشاعات والتخمينات عن صلة القربى التي تربطني بكارد، وهي ليست في معظمها إطراءً أو تزلُّفًا، ولكنَّكم قد تريدون معرفة صلة القربى هذه، أليس كذلك؟

حسنًا، إنَّ آندرو كارد هو ابن عمي، من مدينة هولبروك في ولاية ماساتشوسيتس.

كان كبير موظفي البيت الأبيض في إدارة الرئيس جورج بوش الابن، ونائب كبير موظفي البيت الأبيض ووزير النقل في إدارة الرئيس جورج بوش الأب [238]، الذي أطلق عليه لقب (الملك جورج الأول) تندُّرًا. وبعبارة أخرى، فقد كان آندرو السفاح المحترف للحزب الجمهوري.

عندما كنت صبيةً يافعةً في مدينة أنكوريج بولاية ألاسكا، كانت والدتي تملك عشر صحف أسبوعية وأربع محطات إذاعة. في تلك المدينة وغيرها من مدن ألاسكا يهتم السكان بعضهم ببعض؛ فهم يقطعون خشب التدفئة لجيرانهم، ويخرجون للصيد معًا. في تلك الأيام انتخب الأهالي السيناتور تيد ستيفنز؛ لأنَّه دافع عن قانون حمل السلاح، وكان يدعم قرى ألاسكا ماليًّا، والناس في هذه المناطق يحبون بنادقهم مثلما يحبون الدولارات، وهم يرون أنَّها مثل المَن والسلوى؛ هبة من الله، وهذا ما يُفسِّر حالة سارة بالين.

قابلت آندرو كارد أول مرَّة عندما كنت طالبةً في السنة الأُولى بكلية سميث في نورثامبتون بولاية ماساتشوسيتس. ولأنَّ الذهاب إلى ألاسكا لقضاء العطلة كان مستحيلًا؛ فقد كنت أذهب في عطلة الربيع وعيد الشكر لزيارة عمتي ميمي التي كان عمرها (80) عامًا، لقد كانت حادَّة الذهن، ومؤرِّخ العائلة، وأرادت أن تعلمني كل شيء عن سلالة عائلتنا، كانت سيدةً كريمةً، وكانت تُرحِّب بي كثيرًا في بيتها.

في إحدى زياراتي لبيتها الكبير في هولبروك تعرفت إلى أبناء عمومتي من الساحل الشرقي، بمَن فيهم آندرو كارد، وشقيقه براد فورد، وشقيقتهما سارة، كان آندرو أكبرنا جميعًا، وكانت سارة قد تخرجت في الجامعة، في حين كان براد في السنة الجامعية الأُولى مثلي، وكان يأتي مع أصدقائه إلى كليتي لحضور الحفلات، وكنت أستمتع بصحبته.

لذلك، أريد أن أكون واضحةً: كنت أنا وآندرو كارد نعرف بعضنا جيدًا منذ ثمانينيات القرن الماضي، بالرغم من فارق العمر بيننا.

والأكثر من ذلك أنَّه كان مناورًا سياسيًّا بارعًا؛ فعندما كان يحين موعد الانتخابات، ونظرًا إلى إمبراطورية والدتي الإعلامية المتنامية في صحارى ألاسكا، وعلاقتها بالسيناتور الطيب ستيفنز، كان يتحدث باحترام عن عائلتنا في ألاسكا، وأي تصورٍ خلاف ذلك غير صحيح.

بعد تحذيري من الهجوم على مركز التجارة العالمي عام 1993م، وبداية عملي مع وكالة الاستخبارات الأمريكية، كان عليَّ أن أبتعد عن آندرو الذي كانت له طموحات سياسية وطنية.

وقد حدث هذا البُعد فجأةً عندما عيَّنه الرئيس المنتخب جورج بوش الابن في منصب كبير موظفي البيت الأبيض، وانكشفت قرابتنا العائلية عندما اتصلت به في شهر ديسمبر عام 2000م، بخصوص المفاوضات السرية لاستئناف عمليات التفتيش عن أسلحة العراق.

توقعت من آندرو أن يعرب عن دهشته لقيامي بهذه المهمة، ولكنَّني كنت قد تمكنت من عملي، وحققت أشياء جيدة كثيرة تتعلق بليبيا والعراق، مع اهتمام خاص بمكافحة الإرهاب، وذلك خلال عقد من المثابرة والتخطيط الإستراتيجي الإبداعي.

لقد توقعت من رجل مثل آندرو أن يكون فخورًا بما قمت به، وهو الذي لم يفتأ يتبجَّح أمام أصدقائه عن التزامه الشديد بمجال عملي، توقعت منه أن يكون شديد الاعتزاز بي؛ لأنَّ أحد أفراد عائلته في طليعة العاملين في هذا المجال منذ عشر سنوات.

وأنت حين تقوم بالعمل المنوط بك، فإنَّك لن تجد حرجًا في التواصل مع كبير موظفي رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وتتوقع في نهاية المقابلة أن يقول لك شكرًا.

فكِّروا معي في هذا الأمر، لقد كنت مصدر المعلومات الرئيس عن العراق ومكافحة الإرهاب في الشرق الأوسط، وحظيت بمقابلة كبار المسؤولين في بغداد وطرابلس؛ لذلك توقعت أن يكون لهذه المعلومات المباشرة عن أحدث التطورات في العراق قيمة كبيرة بالنسبة إلى كبير موظفي البيت الأبيض. ونظرًا إلى وظيفتي، ومنصبه؛ فقد كان من المناسب تمامًا أن يتلقى هذا الإيجاز مني، فهذا جزء من عمله.

لقد كان ذلك هو السبب – لا شك – الذي منع آندرو كارد أن يطلب إليَّ وقف اتصالاتي بالعراق، أو التوقف عن تزويده بتحليلي عن آخر التطورات في العراق، لو حدث عكس ذلك لكانت نهاية حديثنا مزعجةً.